

الفصل الأول

مع النصوص المقدسة

كان التوحيد الإسلامي دائماً إلى جانب الاستمرارية مع التاريخ المقدس للنبوة، فمنذ البداية، كان الله الواحد الأحد يرسل إلى البشر أنبياء ورسلاً يوكل إليهم الرسالة، التذكرة به، وأوامره، وحبه، وأمله. ومن آدم، أول نبي، إلى محمد ﷺ خاتم الرسل، يعترف الإسلام ويتماهى مع سلسلة النبوة كلها، من أشهر الرسل (إبراهيم ونوح وموسى وعيسى... إلخ) إلى الأقل شهرة، فضلاً عن آخرين لا نعرف شيئاً عنهم، لقد كان الواحد الأحد دائماً معنا -نحن خلقه- منذ بداياتنا حتى نهايتنا، وهذا هو جوهر التوحيد (وحدانية الله) وما جاء في القرآن من إشارة إلى مصير البشر ومصير كل فرد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽¹⁾.

نسب ومكان

مما لا شك فيه أن نسب النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام هو النسب الأكثر أهمية. وثمة أسباب كثيرة لذلك، لكن القرآن، يشير منذ البداية إلى هذه الصلة الخاصة بإبراهيم عليه السلام عبر التعبير الملح والمتواصل عن التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وإلى التزام الوعي البشري بالمشروع الإلهي، وإلى

إمكان وصول القلب إلى معرفة الله وسلامه من خلال بذل النفس، وهذا هو معنى كلمة «الإسلام»، التي كثيراً ما تترجم ترجمة سريعة بمجرد فكرة التسليم ولكنها تتضمن أيضاً المعنى المزدوج لـ «السلام» و«بذل النفس الصادق». فالمسلم، إذاً، هو كائن أراد، عبر التاريخ - وحتى قبل الوحي الأخير - بلوغ السلام الإلهي عبر بذل نفسه الصادق لله، بهذا المعنى، كان إبراهيم التعبير العميق والمثالي عن الإنسان المسلم:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةَ أَيْكُمْ إِلَاهُكُمْ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (2).

إلى جانب هذا الإقرار بالواحد الأحد، يبرز شخص إبراهيم عليه السلام على الأخص بين سلسلة الأنبياء وصولاً إلى رسول الإسلام ﷺ، لعدة أسباب أخرى، يحكي سفر التكوين - مثل القرآن - قصة أمة إبراهيم هاجر، التي ولدت طفله الأول، إسماعيل، في شيخوخته (3)، وقد طلبت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام الأولى - التي ولدت بدورها إسحق - من زوجها إبعاد أمته وطفلهما.

فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وإسماعيل بعيداً إلى وادٍ في شبه الجزيرة العربية يسمى بكة، وهي ما يعرف اليوم باسم «مكة». وتسرد القصة الإسلامية، مثل سفر التكوين، التساؤلات والمعاناة ودعاء إبراهيم عليه السلام وهاجر، اللذين أرغما على معاناة النفي والانفصال، وفي كل من النصوص الإسلامية واليهودية - المسيحية، نجد سرداً لهذا الاختيار بيقين وراحة

حميمة من أن الأبوين والطفل إنما كانوا ينفذون أمر الله الذي سيحمي
وبيارك ذرية إبراهيم عليه السلام من هاجر، يجيب الله، في سفر التكوين،
دعوات إبراهيم عليه السلام بشأن ابنه:

«أما بشأن إسماعيل، لقد سمعتك؛ إني سأباركه....
وسأجعله أمة عظيمة»⁽⁴⁾.

وبعد ذلك، عندما كانت هاجر في حالة من العجز والضعف دون
طعام وماء:

«وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء
وقال لها: «مالك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث
هو. قومي احملني الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة».⁽⁵⁾

أما القرآن فإنه يخبرنا بدعوة إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ
وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي هَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾﴾⁽⁶⁾.

فعلى صعيد واقعي صرف، يعد محمد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام
ولذا فهو جزء من تلك «الأمة العظيمة» التي وردت في الكتاب المقدس. لذا،

فإن إبراهيم عليه السلام «أبوه» بالمعنى الأساسي، وتقرر النصوص الإسلامية بأن بركات دعاء هذا الأب تمتد لتشمل سليله آخر النبيين فضلاً عن المكان الذي ترك فيه هاجر وإسماعيل، حيث سيتعرض، بعد بضع سنين، إلى الاختبار المفزع للتضحية بابنه، وحيث سيقوم في خاتمة المطاف برفع قواعد البيت الحرام (الكعبة)، يسرد القرآن علينا ذلك على النحو الآتي:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ (١١٢) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١١٦﴾ ﴿٧﴾

هذا ما تنطوي عليه التعاليم الإسلامية: يوجد إله وسلسلة من الأنبياء، يحتل إبراهيم عليه السلام بينهم مركز الصدارة، ويمثل الأب الأصلي للمسلمين، وهو أب سلالة إسماعيل عليه السلام وصولاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أسبغ إبراهيم وإسماعيل طابع القدسية على هذا المكان في بكة (مكة) عبر إقامة بيت الله بيديهما. وفي هذا المكان على وجه التحديد ولد آخر الرسل الذي بعثه الله إلى البشرية: محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي حمل الرسالة التي تذكر الناس بالواحد الأحد وبالأنبياء وبالبيت الحرام. إله ومكان ونبي.

اختبار الإيمان: الشك والثقة

هذه الحقائق البسيطة وحدها تبين الصلة التي تربط حياة محمد ﷺ بحياة إبراهيم عليه السلام. على أن السلالة الروحية هي التي تكشف بشكل أوضح أيضاً الطابع الاستثنائي لهذه الصلة. إن تجربة إبراهيم عليه السلام برمتها تظهر البعد الأساسي للإيمان بالواحد الأحد. فقد كان يتعين على إبراهيم عليه السلام - الذي كان قد أصبح متقدماً جداً في السن والذي رزقه الله حديثاً طفلاً - المرور باختبار الانفصال والهجران، الأمر الذي سيوصل هاجر وطفلهما إسماعيل، إلى حافة الموت، إن إيمانه هو الثقة بالله: فهو يطيع أمر الله - مثلما أطاعته هاجر - ويستجيب له رغم معاناته، ولا يتوقف عن الدعاء إلى الله والتوكل عليه، وقد سألت هاجر إبراهيم عليه السلام عن أسباب ذلك السلوك وعندما علمت أنه أمر من الله استسلمت له طائعة، فقد سألت ثم صدقت، ثم قبلت، وبهذا رسمت خطوات «القبول الإيجابي» لإرادة الله: تسأل بعقلها وتفهم بذكائها وتستسلم بقلبها، ومن خلال هذه التجارب وبعد أن تجاوز إبراهيم عليه السلام حزنه البشري، وفي الواقع من خلال هذا الطابع ذاته لذلك الحزن، أقام إبراهيم عليه السلام علاقة مع الله تستند إلى الإخلاص والمصالحة والسلام والثقة، كان الله يجربه لكنه كان يكلمه دائماً ويلهمه ويفرش طريقه بالعلامات التي تبعث الهدوء والطمأنينة في نفسه.

بعد بضع سنين من هذا الهجران في الصحراء، تعرض إبراهيم عليه السلام إلى اختبار آخر: حيث أمره الله بأن يذبح ابنه الأول، إسماعيل⁽⁸⁾. وإليك القصة كما وردت في القرآن:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي
 أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَآ أَبَتِ افْعَلْ مَا
 تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
 ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴿٩﴾

كان اختباراً مروعاً: فمن أجل حب إبراهيم ﷺ لربه وثقته به كان عليه أن يضحي بابنه، رغم مشاعر المحبة الأبوية، فاختبار الإيمان يتجلى هنا في هذا الصراع بين حبين - فقد أطلع إبراهيم ﷺ إسماعيل على ما كان مطلوباً منه وكان ابنه هو موضوع التضحية وكانت كلماته المطمئنة لأبيه مثل علامة تأكيد: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ لَابْرِيئِينَ﴾. وكما كانت عليه الحال قبل بضع سنوات مع هاجر، فقد وجد إبراهيم ﷺ في الآخرين علامات تمكنه من مواجهة الاختبار، تلك العلامات التي تعبر عن وجود اليد الإلهية في قلب الاختبار، كان لها دور أساسي في تجربة الإيمان وشكلت نمط كون المرء مع نفسه ومع الله. فعندما يشاء الله تعريض رسوله لاختبار مروع ويقرن في الوقت نفسه ذلك الاختبار بعلامات عن وجوده ودعمه (كلمات التثبيت من زوجته أو ولده، رؤيا، حلم، إلهام... إلخ)، فإنه يؤدب إبراهيم ﷺ في مجال الإيمان: فإبراهيم ﷺ يشك في قدرته وقوته وإيمانه، لكن العلامات تحول في الوقت نفسه دون شكه بالله، وهذا يعلم إبراهيم ﷺ التواضع ومعرفة الله. وعندما كان إبراهيم ﷺ يتعرض إلى الشك العميق في نفسه،

وإيمانه وصدق ما يسمعه ويفهمه، تمكنه تأكيدات هاجر وإسماعيل (الذين يحبهما لكنه يضحي بهما في سبيل المحبة الإلهية) ألا يشك بالله وبوجوده وإحسانه. وهكذا فإن الشك بالذات يترافق مع ثقة عميقة بالله.

إن اختبارات الإيمان في واقع الأمر لم تكن أبداً مأساوية في الأحداث الإسلامية، وبهذا المعنى، فإن قصة إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن تختلف من حيث الأساس عن قصة العهد القديم عندما يتعلق الأمر بمسألة التضحية. ينص سفر التكوين على ما يأتي:

وبعد هذه الأحداث امتحن الله إبراهيم، فقال له: «يا إبراهيم! قال: «نعم، ها أنا». قال: «خذ إسحاق ابنك وحيدك الذي تحبه واذهب إلى أرض مورية، وهناك أصعده محرقة على جبل أدلك عليه... وأخذ إبراهيم حطب المحرقة، ووضعه على ظهر إسحاق ابنه، وأمسك بيده النار والسكين، وسارا كلاهما معاً. فقال إسحق لأبيه: «يا أبي!» قال: «نعم يا بني» قال «هنا النار والحطب، فأين الخروف للمحرقة؟» فأجاب إبراهيم: «الله يدبر له الخروف للمحرقة يا بني. وسارا كلاهما معاً» (10).

يتعين على إبراهيم عليه السلام التضحية بابنه وهنا نجد أنه يخوض هذا الاختبار في عزلة مطلقة، فرد على سؤال ابنه المباشر: «أين الخروف للمحرقة؟» فيجيب إبراهيم موارباً، فهو وحده يجيب دعوة الله، قد يبدو

هذا الاختلاف بين الروايتين طفيفاً، إلا أنه ينطوي على نتائج أساسية تتعلق بصلب النظرة إلى الإيمان، إلى اختبار الإيمان، وإلى علاقة البشر بالله.

تجربة مأساوية

هذه العزلة المأساوية للإنسان في مواجهة ما هو إلهي تكمن وراء تاريخ الفكر الغربي من المأساة اليونانية (حيث يواجه بروميثيوس الثائر آلهة أوليمبيا) إلى التفسيرات الوجودية والمسيحية الحديثة كما تتجلى في أعمال سوربن كيركغارد⁽¹¹⁾. إن تكرار ظهور موضوع الاختبار المأساوي للإيمان المنعزل في لاهوت الغرب وفلسفته قد ربط هذا التفكير بمسائل الشك والتمرد والشعور بالذنب والغفران وبالتالي فإنه قد شكل بالطبع الخطاب المتصل بالإيمان والاختبارات والأخطاء⁽¹²⁾.

على أنه يجب توخي الحذر من المقارنات الظاهرية، فصحيح أن قصص الأنبياء، لا سيما قصة إبراهيم عليه السلام، تروى بطريقة متماثلة على ما يبدو في النصوص اليهودية والمسيحية والإسلامية، إلا أن دراسة أكثر دقة تبين أن الروايات مختلفة ولا تروي دائماً ذات الوقائع ولا تنطوي على ذات الدروس، لذا، فإنه يتعين على من يدخل إلى عالم الإسلام ويحاول مواجهة وفهم المقدسات والتعاليم الإسلامية أن يبذل الجهد الفكري والبيداغوجي الذي يقترن بعملية الطرح جانباً - طيلة مدة هذه المواجهة - للصلات التي قد يكون أقامها بين تجربة الإيمان والاختبار والخطأ والبعد المأساوي للوجود.

يروى الوحي القرآني قصص الأنبياء، ويعمل من خلال هذا السرد على أن يكون في قلب المسلم علاقة بالمتعالى الذي يصير دائماً على استدامة الاتصال عبر العلامات والإلهامات بل حتى الوجود الحميم ذاته للواحد الأحد الذي تعبر عنه هذه الآية القرآنية تعبيراً في غاية الجمال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (13). لقد تعرّض جميع الرسل، مثل إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ، لاختبار الإيمان، وكانوا دائماً يجدون -بالطريقة نفسها- الحماية من أنفسهم وشكوكهم بالله وعلاماته وكلمته. أما معاناتهم فلا تعني أنهم ارتكبوا أخطاء، ولا تكشف عن أي بعد مأساوي للوجود؛ إنها، بمزيد من البساطة، تعلم التواضع الذي يفهم بأنه مرحلة لازمة في تجربة الإيمان.

وبما أن حياة محمد ﷺ كانت تعبيراً عن الجوهر الظاهر والمشاهد لرسالة الإسلام، فإن التوصل إلى معرفة النبي هو وسيلة ذات امتياز للانضمام إلى عالم الإسلام الروحي، فمنذ ولادته حتى وفاته، كانت تجربة الرسول ﷺ - الخالية من أي بعد مأساوي بشري - تقرن دعوة الإيمان والاختبار لدى الناس بالتواضع والسعي إلى السلام مع الواحد الأحد.

